مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
مؤسسة دراسات وأبحاث

قسم دراسات الموروث الديني

مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين:

قول في البنية والوظيفة

محمد صلاح بوشتلة
باحث مغربي

"اعرف حقائق الأمور بالتشابه، فإنّ الحق واحد، ولا تستفزنك الأسماء، وإن اختلفت."

أبو حيان التوحيدي، المقابسات، المقابسة 26

ملخّص الدراسة:

"مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين"، عنوان لكتاب هو بالزخم الفكري والثقافي بما كان، زخم يختزل سمة نسق فكري لحضارة كان الاختلاف فيها سيد كل المواقف، وشهادة من مؤسس أكبر مدرسة ستطبع، وستنحت تاريخ الحضارة العربية ـ الاسلامية، ليس العقدي فقط، بل الفقهي والصوفي والفلسفي.

بيْد أنّ الاختلاف لم يكن، ولن يكون أبداً، عقبة كأداء في وجه إنتاج قول آخر على القول المؤسس، القول الموحى به على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ، إذ إنه إجابة شافية عن سؤال: هل في ثقافتنا من إمكانية لقول أكثر من قول؟ وهل هناك من إمكانية لتعديد الأفهام حول النص المؤسس دونما إخراج لبعضنا من حظيرة الدين وحدوده؟ وهل بمقدورنا الحديث عن اختلاف يؤسس لدائرة تأويلية لا يفهم فيها سؤال ما إلا باستحضار أجزاء الأمة كلها؟

على سبيل التقديم:

لقد كانت وظيفة علم الكلام في كثير من مراحله، هي تسخير العقل والجدل الكلامي، القائمين على المناظرة وحسن الإقناع، لأجل تحقيق إجماع إيماني يضم ويشمل الجميع، بحمل الكل على المذهب الواحد بحجة العقل وبراهينه، بدل التحارب بالسيف الذي أطار من رؤوس الطوائف الإسلامية أضعاف ما أطار من رؤوس أهل الطوائف الأخرى، في فتن سياسية الأصل انقلبت إلى مجازر دينية. غير أنّ هذا العلم سرعان ما نحا به كثير من أهله نحو عوالم الانغلاق والعنف الوحشي، بسريان التكفير فيه، والأخذ في تصنيف فرقه إلى أهل نجاة وأهل هلاك، وأصحاب سنة وأصحاب زيغ، في غرور عقدي قاتل وحاد، جنى على الإسلام وتجنى على المسلمين، ناشراً نزوعات الغلو، ومعيداً انتشار ميليشيات التطرف الكلامي، بدعوى الاستحواذ الكلي على الوحي، واحتكار حق تأويله، فتتقدم كل فرقة بفهمها الخاص له، باعتباره الفهم الذي يجب الأخذ به، والويل والثبور لما عداه؛ أي الانتقال من أدب مناظرة الفرق المغايرة إلى تصنيفها والحكم عليها، فكان الاضطهاد صديق المحنة في تعامل كل فرقة مع أختها، إذ أمسيا المشترك بين جميع الفرق في حوارها العنيف فيما بينها، دونما أن يكون هذا المشترك حكراً على أحد دون الآخر، فكما امتحن المعتزلة الحنابلة أيام المأمون، اضطهد الحنابلة المعتزلة أيام الخليفة القادر (420 هـ)[1]، وهكذا كانت الحكاية في اضطهاد وتنكيب الخوارج والشيعة والأشاعرة والفلاسفة، إن جاز اعتبار الفلاسفة فرقة من الفرق.

وكان كردة فعل على هذا الانغلاق المستفحل الذي تضرر علم اللاهوت الإسلامي من نزعة فرقه العدائية تجاه بعضها بعضاً، أن بزغت مشاريع أكثر تسامحاً وقبولاً بالآخر، وتفهماً له وتفاهماً معه، وأكثر تحرزاً من الوقوع في تكفيره، بدل اعتباره خطراً يجب تغذية التشدد ضده، ذاهبة بخطورة هذه الجناية الكلامية حد الشجب اللامتسامح فيه، وعدم التساهل في مسألة تكفير فرق أهل الإسلام بعضها البعض، بل بما في ذلك تكفير فرق الأقليات غير المسلمة في بلاد الإسلام من أتباع الدين الموسوي والمسيحي، كما كان الأمر مع أبي حامد الغزالي الذي ذهب إلى حد استبدال مفهوم الكفر بمفهومي الدركات والدرجات، وبالتالي عدم حصر الأشخاص في البوتقة الضيقة: "هذا مؤمن" و"هذا كافر"، بل بدرجة قربه وبعده من منازل السعادة والشقاوة، داعياً الفقهاء في الآن نفسه إلى كف ألسنتهم عن أهل القبلة كلهم، وعدم الاشتغال بتضليلهم قلباً ولساناً، ما دامت بحسبه فرق

[1]- G. Makdisi: Ibn Aqil: Religion and culture islam, edinburgh university press, 1997, p. 8

الأمة الثلاث والسبعين كلها ناجية والهالكة منها واحدة[2]، في مخالفة تامة لحديث الفرقة الناجية المشهور، فأغلب الخلق بحسبه هُيئ للسعادة في الدارين، محمّلاً المتكلمين بتعصبهم مسؤولية انكماش الدين، وعزوف أكثر الناس عنه، بهدرهم أعمارهم في تتبع خطايا الآخرين، وتعداد ذنوبهم ومثالبهم الظاهرة والباطنة.

من تلك المشاريع الكلامية التي حاولت تجاوز وتهميش ثقافة الكراهية المستشرية، والحد من التسرع في إصدار أحكام التفسيق والتبديع ضد المخالفين، والتي حاولت تقديم البديل بنشر فكرة الإيمان بالتعدد المذهبي، والقبول بالآخر الكلامي، وعدم إخراجه من حظيرة الدين، وتزكية وتأصيل قاعدة "شرعية الاختلاف" في النفوس، بل وضرورته المنزلة له من ممكن الوجود إلى واجب الوجود، هناك مشروع أبي الحسن، شيخ الأشاعرة الأول وباني مذهبهم عن الاختلاف، مشروع يخترق أحد أهم كتبه "مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين"، الذي يُعدّ بياناً مهماً من داخل علم الكلام حول أهمية الاختلاف، وقيمته الحضارية، والسبل القمينة بمحاصرة عواقبه جراء اعتبار البعض له سبباً في المماراة والتعدي على الآخرين.

1ـ مقالات الإسلاميين أسلوباً ومنهجاً:

منذ البداية، يحاول الأشعري في ضميمته المنهجية التي دبج بها كتابه أن يثير انتباهنا إلى كون مؤلفه هذا ليس كبقية المؤلفات، إذ أنه خروج عن السائد في التصنيف الكلامي المتحامل على الفرق المخالفة بالتقصير في الحكاية عنهم، وارتكاب المغالطات وتخطئة آراء المخالفين قصداً والتقصير في الحكاية عنها تعبيراً عن إرادة في التشنيع على المخالف[3]. واعتماد الكذب في سرد الأقوال بغية التشنيع والتجريح، مفسراً إقدامه على هذه المحاولة التأصيلية بما كانت تتعرض له المقالات الكلامية من تشويه، وتزييف من قبل المخالفين، واختلاق لأقاويل لا يعرفها أصحابها، ونسبتها لهم، مما أدى إلى الاضطراب والخلط، وجعل مهمة المتكلم في حكم العسير المعرض للزلل، مادامت النصوص والآراء منقوصة وغير مكتملة وغير موثوقة المظان في أحسن الحالات، ومكذوبة أو ملأى بالتلبيسات والتزييفات في أسوئها.

وبهذا، فالأشعري في مقدمته المنهجية هذه يحاول الظهور بمظهر الذي يلزم نفسه منذ البداية باتباع الموضوعية التي هي بحسبه سبيل الربانيين، والفطناء المميزين[4]، فيجعل الدقة العلمية في نسبة الآراء

---

[2]- أبو حامد الغزالي، **فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة**، تحقيق محمد دبيجو، ط1، 1993، ص 85

[3]- أبو الحسن الأشعري، **مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين**، تحقيق محيي الدين عبد المجيد، ج1، المكتبة العصرية، بيروت، د.ت، ص 33

[4]- المصدر نفسه، ج1، ص 33

لأصحابها، وتركه الإطالة والإكثار منهجاً لكتابته. حائداً بذلك عن ليِّ أفكار المذاهب والرجال، وتقويلها ما لم تقل، كما يفعل بعض المخالفين من نسبة القول إلى مخالفيهم ما يظنون "أنّ الحجة تلزمهم به"[5]، جاعلاً مهمته في التأريخ لما هو موجود، أو لما كان موجوداً في ساحة أهل الترياق الأكبر من مقالات، مزيلاً عنها ما حاق بها من كذب المغالطين، ومن ترك "للتقصي في الرواية عن المختلفين".[6] والتحلي بالموضوعية هذه، هو ما نستشفه لأول وهلة من استعمال أبي الحسن لأدوات وصيغ تعبيرية حين سرده لمواقف أرباب النظر من المتكلمين من قضايا وجزئيات هذا العلم بما يعبر عن قوة وضعف الحاكي ووهن وصلابة المحكي أو العكس، من قبيل "وأظنه ـ أي الحاكي- غلط في الحكاية الأخيرة"[7]، أو حين قوله منبهاً على حكاية حاكٍ آخر "وإنما دلسه"[8]، وأيضاً بتعقيباته المتكررة على ما يحكيه هو نفسه، من وجود شك في تذكره لما قاله أحد المتكلمين وعدم يقينه التام فيه، بأن يستعمل أفعالاً وصيغاً تؤكد ذلك وتثبت عدم تحققه من صدق محكيه، كقوله: "وهذا قول إبراهيم النظام في غالب ظني"[9]، و"هذا ما لم نتحققه"[10] و"هكذا حكى زرقان"[11]، ولا يجد حرجاً في أن ينبه إلى خلاف ما حكاه هو عن رأي فرقة أو متكلم ما، كقوله مثلاً "وحكى حاكٍ خلاف هذا"[12]، ويجب الإشارة إلى أنّ أبا الحسن قلما نجده يحدث حواراً ثنائياً بينه وبين أقوال المتكلمين بغية الإفحام والتعجيز والرد عليه، فيتوقف عند من يخالفه الرأي بأن يظهر معارضته له، لا بأن يتبع طرق النقد والتجريح، وإنما يكتفي بقوله "وهذا القول منه غلط عندي"[13]، أو بقوله في رأي يخالف معتقده "تعالى ربنا الله عن ذلك علواً كبيراً".[14]

كما لا يتوانى أبو الحسن، عبر طول مؤلفه هذا، في ذكر مظانه التي استقى منها ما حكاه، وتثبيته لمصادره بإرجاع روايته إلى أصولها الأولى، التي كانت إما عبر مطالعة كتب المتكلمين أو الفلاسفة أو الفقهاء، بذكره للكتاب بالاسم والمؤلف، كقراءته لكتاب الجزء للنظام[15]، أو بتعميمه القول وعدم ذكر العنوان والاكتفاء

---

[5]- المصدر نفسه، ج1، ص 33
[6]- المصدر نفسه، ج1، ص 33
[7]- المصدر نفسه، ج2، ص 113
[8]- المصدر نفسه، ج2، ص 246
[9]- المصدر نفسه، ج2، ص 261
[10]- المصدر نفسه، ج2، ص219
[11]- المصدر نفسه، ج2، ص 123
[12]- المصدر نفسه، ج2، ص 110
[13]- المصدر نفسه، ج2، ص 220
[14]- المصدر نفسه، ج1، ص 344
[15]- المصدر نفسه، ج2، ص 15

بالمؤلف كقوله "وذكر الكرابيسي في بعض كتبه"[16]، و"قرأت في كتاب يضاف إليه".[17] أو عبر ذكر اسم الراوي الذي كان مصدرها الأساسي هو "زرقان" الذي غالباً ما كان يتكرر في أغلب الروايات، أو بالأخذ عن الشيخ نفسه صاحب الموقف سماعاً كقوله: "سمعت شيخاً من مشايخ الرافضة، وهو..."[18] أو كقوله "وأجاز الجبائي في بعض ما دار بيني وبينه من مناظرة..."[19] أو بأخذه عن تلاميذ صاحب الموقف حين قوله مثلاً: "وحكى بعض أصحابه عنه"[20] ولا يجد أبو الحسن مانعاً من أن يأخذ بروايات ابن الراوندي الذي يتواجد بكثرة عبر مقالات أبي الحسن دون لقبه "**الملحد**" الذي اشتهر به في سائر كتب الرد الكلامية وتآليف الملل والنحل كقوله "وحكى ابن الراوندي".[21]

وبهذا، فطريقة الأشعري في سرد مقالات إسلاميه تقترب من عمل المحقق أكثر من مؤرخ الأفكار فقط، فيستخدم كل أدواته المعرفية لسبر حقيقة القول، وحقانية نسبته لصاحبه مع عدم توانيه في إصلاح وذكر أخطاء من حكى عنهم، وترتيب أقوال المتقدمين والمتأخرين من الفرقة ذاتها عن الموقف نفسه، محاولاً بذلك رسم صورة المذهب أو الفرقة كما هي، ما يجعلنا أمام عمل جينيالوجي كبير في تاريخ تيولوجيا الإسلام الأولى، وحالة خاصة بين كتب الملل والنحل والفرق والمذاهب.

هذا، ولا يمكننا إلا أن نشير إلى أنه رغم روح الموضوعية الطاغية على مقالات أبي الحسن، ورغم كونه لم يُخرج أحداً من ملة الإسلام محاولاً الالتزام معهم بسبل الفطناء الربانيين التي أظهر الالتزام بها في ديباجة مؤلفه، فإنه يستحضر مرة أوصافاً ونعوتاً تنزاح به عن سياق الدقة العلمية، لتحكم بالمباشر على الفرق، بعكس ما جمعهم في الأول عليه، كاستعماله النادر جداً لثنائيات: "أهل السنة والاستقامة... "[22]، و"أهل الحق"[23]، و"أهل البدع".[24] هذا ويجدر التنبيه إلى تدخل ذاتية الأشعري على حساب موضوعيته عند تنزيله لأحكام ونعوت يلبسها ببعض الأقوال، واصفاً بها بعض النظار من أهل الكلام، كقوله عن ابن الراوندي: "وإنما دلسه

---

[16]- المصدر نفسه، ج1، ص 178
[17]- المصدر نفسه، ج2، ص 184
[18]- المصدر نفسه، ج2، ص 183
[19]- المصدر نفسه،ج2، ص 122
[20]- المصدر نفسه، ج2، ص 44
[21]- المصدر نفسه، ج2، ص 261
[22]- المصدر نفسه، ج2، ص 144
[23]- المصدر نفسه، ج2، ص 164
[24]- المصدر نفسه، ج2، ص 164

اللعين ليعتقد من لا معرفة له ولا علم عنده..."[25]، وتدخله وإن بشكل نادر جداً للحكم لصالح طرف على حساب طرف آخر كقوله: "والحق مع صالح قبة..."[26]، وكقوله "وهذا غلط عندي"[27]، وقوله "وهذا قول أهل الحق"[28]، وكذلك حكمه على بعض المواقف من عند نفسه كوصفه لبعض مواقف أبي هذيل بالقول: "وغلا أبو هذيل في هذا غلواً كبيراً"[29]، كما أنه لا يألو جهداً في ترصد الزيادات التي لحقت الروايات المعتمد عليها كقوله: "وقال هشام بن الحكم [....] وزاد البلخي في الحكاية أنه قال [....] "[30]، والأكثر من هذا أننا نجده يتوقف عند الحكاية التي شك في صدقها وإيهامها، يتحرز دون مجازفة في تثبيت صدقها أو تكذيبها بقوله مثلاً: "فأما ما حكاه جعفر [....] فلا أدري أأصاب في حكايته أو وهم فيها".[31]

إنّ سيطرة الموضوعي، بشكل ما، في مؤلف الأشعري هذا هو الذي جعل كثيراً ممن بعده يعتمد عليه بكل ثقة في التعرف على أقوال الفرق والمذاهب، خاصة التي فقد اسمها واندثرت مقالتها. ولولا وثيقة المقالات ما كنا "لنعرف بوجودها ولا أن نعيش نبضها"[32]، حتى أن أحد أعداء الأشاعرة التاريخيين ابن تيمية لا يفتأ يذكر أبا الحسن بخير، ويثني عليه ويصفه بأنه "أبرع من كتب في المقالات وأثبتهم وأوثقهم، ويذكر مؤلفاته بما هي خليقة له من الثناء والتبجيل".[33]

وعلى الرغم من روح الموضوعية والحياد اللذين يخترقان مقالات الإسلاميين باتباعه سبيل الفطناء المميزين بعدم اعتماده الكذب المحرم في كل الملل والوصايا الرسولية عند الحكاية عن الفرق، بل وعدم إضافته لقول الذات على هامش ما يتقوله الآخرون، فإن منطق كتابته الخرساء التي يتم فيها إسكات الذات لإفساح الكلمة للآخرين، لا يعني غياب ذات ومذهبية صاحبها؛ فالكتاب رغم جهده التأريخي العلمي الكبير، فإنه يحمل مشروعاً كبيراً، مشروعاً يحمل اسم أبي الحسن الأشعري، فجمعه للكل ضمن دائرة الإسلام واتساع عمله غير المذهبي هذا للشيعي كما للمعتزلي والديصاني وغيرهم، هو إقرار منه بكون التنوع وفكرة قبول الكل هي

---

[25]- المصدر نفسه، ج2، ص 246
[26]- المصدر نفسه، ج2، ص 122
[27]- المصدر نفسه، ج2، ص 12
[28]- المصدر نفسه، ج2، ص 218
[29]- المصدر نفسه، ج2، ص 220
[30]- المصدر نفسه، ج2، ص 256
[31]- المصدر نفسه، ج2، ص 267
[32]- فوقية حسين محمود، **تقديم الإبانة عن أصول الديانة، لأبي الحسن الأشعري**، دار الكتاب، ج1، ص 383
[33]- محي الدينعبد المجيد، **تقديم مقالات الإسلاميين**، ج 1، ص 3

التي تجعل هذا الحقل الكلامي يتعالى على نفي المختلف، ومن ثمة ضم كل النظار المسلمين على تناقضهم وتضادهم إلى أمة الإسلام، دون انطلاق الأشعري من منطق الفرقة الناجية، مادامت كل الفرق عنده ناجية بنسبتها كلها للإسلام دونما استثناء لأية واحدة منها.

إنّ إثبات انتماء سائر الفرق إلى أرض الإسلام، من خلال نسبة المقالات للإسلاميين المصلين في العنوان يشكل في حد ذاته حدثاً، باعتبار شعيرة الصلاة، أشهر عبادة جماعية في الإسلام، المشترك الأول أو العقيدة الدنيا التي تجمع الكل، والنواة الضامنة صراحة أو ضمناً بنسبة الجميع للإسلام، وانتماؤهم لأصول مشتركة، تُعَسِر عملية الشطب على أي من الفرق من لائحة الدين، وبالتالي توظيفه هذه الشعيرة الدينية، لتكون نقطة تقاطع موحية للمتكلمين بأن الإسلام جغرافيا دينية ينتظم في إطارها الفسيح الجمع الرحب، وبالتالي فبالرغم من تعدد وجهات النظر ستبقى القبلة واحدة حيث وجهة الصلاة. وبخروجه في متن الكتاب عن طبيعة الكتابة الكلامية السائدة في كتب الرد والمناقضة المتراوحة بين ثنائية النقض والإثبات عبر افتراض أسئلة وإلزامات ومن ثمة الرد عليها، واقتسام دائرة الانتماء إلى شق محق وجب الانتصار له، وآخر باطل يجب دحره ومغالبته بكل الأساليب الممكنة من "الكذب والمغالطة والبهت والمكابرة"[34]، ما دام المقصود هو حماية المعتقد الموروث عن السلف الصالح لكل فرقة، يأتي الانفتاح من الأشعري على سائر الفرق الإسلامية بتسويق منتوجها الكلامي تعريفاً وسرداً، دونما كذب ولا إساءة ولا تدخل في الغالب الأعم يعطي الشرعية للتعسف في التأويل واعتماد التزييف في التحليل، وهذا ما نرقبه بشكل جلي عندما ينفرد الأشعري بتسجيل معلومات عن فرق بالكاد تعرف أو تذكر في مؤلفات الملل والنحل، إذ نحس بمحاولته ألا يبقى نص خفي، ولا مغيب أو غائب، ولا نص مهمش أو مسكوت عنه أو نص معلق أو مدان على طول مؤلف شيخ الأشاعرة الأول إلا وتم الإفصاح عنه وتم إظهاره، بما يعني أنّ هناك إقراراً ضمنياً بانتماء كل هؤلاء داخل الدائرة الإسلامية، وبشرعية الوجود والحياة، وكذلك الفهم المغاير.

ويلاحظ أنّ مقالات أبي الحسن يخترقها كثير من التكرارات، إذ تستعاد المسألة نفسها في أكثر من محل وموضوع، وكذلك كثرة التفريعات دون سبب موجب ولا ذريعة، وعدم وجود فصل تام ودقيق بين المذاهب في سياقات الكتاب، مما يجعل الرأي الواحد أو ما يشابهه يتكرر على لسان فرقتين مختلفتين، وهذا ما سمح للبعض باستعادة تلك التهمة القديمة التي انتشرت على يد أحد تلاميذ الأشعري المخلصين، وهو الحسن العسكري من

[34]- الفارابي، **إحصاء العلوم**، بيروت، مركز الانماء القومي، 1991، ص 42

كون شيخه لم يكن حسن التأليف، حين قال: "كان الأشعري تلميذاً للجبائي[....] وكان صاحب نظر في المجالس، وذا إقدام على الخصوم، ولم يكن من أهل التصنيف، وكان إذا أخذ القلم يكتب، ربما ينقطع، وربما يأتي بكلام غير مرضي "[35] ، بل ويؤكد هذا أحد أكبر المنافحين عنه وعن الأشعرية، ابن عساكر، حين تأكيده أنّ هذه كانت "حالته في الابتداء، لا بعد ما أن منّ الله عليه من الاهتداء"[36]، وهذا ما نستشفه أيضاً من تعدد الآراء وتناثرها هنا وهناك في مؤلف أبي الحسن، ما يجعل لمّ شملها من طرف القارئ شيئاً صعباً، والربط بينها أمراً متعسراً، وهذا ما نفاه عبد الرحمن بدوي ووجد له عذراً من كون هذا الاضطراب أتى من تناول الأشعري لموضوعات متشعبة كل التشعب، إلى جانب الاختلاف الكبير في أطروحات الفرق الإسلامية حول المسألة الواحدة.[37] ورغم كل هذا يبقى أسلوباً قوياً ومتيناً، رغم ما قيل عنه، ورغم التكرار الذي تخلله وأفقده بعضاً من أناقته وجماليته، إذ أن المعنى لا يستغرق فيه إلا عند صعوبة الموضوع ودقته، لأنّ الأخير من يفرض ذلك، خاصة في دقيق الكلام وجليله، وعند امتداد الأبعاد الفلسفية والكلامية حوله، لا سيّما عند تعدد الأطراف وتداخل كلام الفرق فيها. ورغم هذا التكرار، فإنّ الأشعري حاول قدر الممكن الالتزام بوضع علاقة واضحة بين الموضوع والموضوع الذي قبله وبعده، فإذا ما جنح إلى ذكر قول إحدى الفرق، فإنه ينبّه إلى ذكره في سياق آخر أو في موضع سبق أو سيأتي فيما بعد، وذلك بغية الاختصار وعدم الإطناب، كما التزم في ديباجة مؤلفه، أو بضربه صفحاً عن القول الذي سبقت الإشارة إليه دون تحمل مشقة تكراره من جديد.

2. مقالات الإسلاميين بين السبب والغاية:

إنّ دعوة الأشعري المستبطنة في مقالات الإسلاميين إلى تنظيم الاختلاف الذي تطور من مسائل الاعتقاد إلى مسالك التفكير وسبل بناء الأحكام، عبر ضمه لكل مقالات فرق المتكلمين في صف الإسلاميين المصلين، ونأيه عن تكفير أية من فرقه، والتعامل مع المختلف بربانية لم تأت هكذا، وإنما استجابة لواقع كلامي وسياسي، كما أشرنا آنفاً، أخذ يتوجه نحو إحداث تعصبات فاحشة، وخصومات متفشية مفضية إلى إهراق الدماء وتخريب البلاد، خاصة وأنّ الشيخ أبا الحسن حديث عهد بمحنة الحنابلة على يد المعتزلة، وباستفحال معضلة التشدد الحنبلي، حتى كاد يسود الاعتقاد من كون "الانغلاق والعنف كانا السمة الأساسية للفكر الكلامي"[38]، لما ساد من

---

[35]- نقلاً عن بدوي، عبد الرحمن، **مذاهب الإسلاميين**، دار العلم للملايين، بيروت، 1997، ص 525

[36]- ابن عساكر، **تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري**، ص 91، دمشق، 1347هـ، نقلاً عن عبد الرحمن بدوي، مذاهب الإسلاميين، ص 525

[37]- انظر: عبد الرحمن بدوي، **مذاهب الإسلاميين**، ص 526

[38]- محمد بوهلال، **إسلام المتكلمين**، رابطة العقلانيين العرب، دار الطليعة، بيروت، ط1، 2006، ص 206

ادعاء كل فرقة أنها تمتلك الحقيقة وما عداها زيف وأباطيل، وبالتالي تجويز وضعها ضمن خانة المروق من الدين، فتجب محاصرتها في إطار الزندقة والتبديع ونعتها بالزيغ والضلال، فالإفضاء في النهاية إلى استحلال الدم والأرواح إلى حد جاز معه وصف علم الكلام باللعبة الخطرة، الشيء الذي أدّى به إلى الانحسار، و"تمكين فروع معرفية أخرى، مثل الفقه والحديث من الانتصار النهائي عليه"[39]، لا سيما وأنّ أبا الحسن كان من أنصار علم الكلام وممن كتب في استحسان الخوض فيه، ومن المؤيدين لشرعنة هذا العلم في البيئة الإسلامية، على عكس الحنابلة الذين حرَّموه وفسقوا المشتغل به.

وقبل هذا، فدفاع الأشعري عن أحقية كل الفرق الإسلامية في الاختلاف وتوصياته بالتعامل الرباني الفطن معها، بعدم التكفير، يأتي بحسبه مادام الاختلاف هو حقيقة واقعة، عرفها الإسلام منذ العهد الأول بعد وفاته عليه السلام، فكان جيل العهد الأول سلفاً صالحاً بالنسبة للجميع، رغم اختلافاتهم في كثير من القضايا، وبالتالي فالاختلاف يبقى واقعة ضرورية لدى بقية الأجيال، لذلك لا يرى أبو الحسن ضيراً من نسبة فرق كتابه هذا إلى الدين الحنيف، بنسبتها كلها إلى فعل هو عماد الدين، وهو الصلاة. وعدم إساءته لها في رواية آرائها ودعوته لتعامل رباني معها هو تأسيس ودفاع في الأصل عن مشروعية اختلافه هو أيضاً، واختلاف مشروعه العقدي الجديد قبل أن يكون دفاعاً عن أحقية الآخرين في اختلافهم؛ فالأشعري كتب "مقالات الإسلاميين" تحت وطأة الاضطهاد الحنبلي؛ أي أنه عارف بحقيقة السطوة الكلامية لأتباع البربهاري إمام الحنابلة آنذاك الذي يعترف كثير من الأشاعرة أنّ الأشعري كتب "الإبانة" مداراة له وتقية من أتباعه من الحنابلة، وخوفاً منهم على نفسه، حتى أن أهم رؤوس الأشاعرة، وهو ابن عساكر يقول بصريح العبارة: "إنّ أصحاب الأشعري جعلوا الإبانة من الحنابلة وقاية"[40]، فألجؤوه إلى التقية والخضوع المؤقت للحكم القائم، بإظهار الانسجام معهم مع الاستعداد السري للتغير والتغيير، أكيد هو الذي دعاه إلى إعادة صياغة مفهوم الاختلاف بشكل أكثر انفتاحاً وابتعاداً عن التطرف والغلو، بشكل يضمن له حق إنتاج قول كلامي مغاير، دونما خوف من ميليشيات التشدد الحنبلي، هذا الخوف الذي عانى منه الأشاعرة قبل أن يتمكنوا من جعل مذهب الأشعري مذهباً للجماعة المسلمة، ويلبسوه ثوب السنية بعد محن ومضايقات من الطرف الحنبلي، وبعد معركة طويلة النفس تذكرنا بمحنة أصحاب الحديث في صدر الدولة العباسية. فالأشعري كان يعرف ما سيحيق به إن أظهر اختلافه، خاصة وأنّ الحنابلة كانوا

---

[39]- van ess; prémices de la théolgie musulmane: pp 120-121

نقلاً عن: محمد بوهلال، المرجع نفسه، ص 24

[40]- ابن عساكر، **تبيين كذب المفتري فيما نسب للإمام أبي الحسن الأشعري**، دمشق، 1347، ص 388

يستندون سوسيولوجياً إلى الجمهور العريض الذي يتحكم في تهييج مشاعره، ومنهم محدّثون ووعاظ وقصّاص يمتلكون طاقة تعبوية خارقة، ولهم صلات عميقة بالعوام والسوقة في بغداد.

إنّ صفة الانفتاح والقبول بالمخالف هي الخاصية العامة لكتاب شيخ الفرقة التي كان لها بالغ الأثر على حضارة بأكملها، برفضه الانطلاق من مواقف مسبقة وأحكام جاهزة توجه وتصوب نظرته قسراً وكرهاً نحو ثنائية مواقف التكفير والتأمين، مفضياً – أي هذا الانفتاح – إلى فتح باب آخر من نوعية التعامل والتفكير مع الآخر وبصدده، لها نتائجها العميقة على صعيد الممارسة الاجتماعية والسياسية والمعرفية، مادام التأسيس للحق في الاختلاف هو تأسيس للشرط الأساس في الجدل الديني الذي يشكل الحوار مع الآخر المخالف الأساس المكون لعلم الكلام، فمن أجل الآخر يبنى الكلام وتقام الردود والنقوض، وحتى حين لا يوجد آخر ولا يوجد له قول، يتوهم المتكلم آخره المخالف، بافتراض أسئلة وإلزامات يقوم بالرد عليها هو نفسه، موجداً من عند نفسه مخالفه، تحت قاعدة "وإن قالوا قلنا".

إنّ كتاب مقالات الإسلاميين، بلغة كارل بوبر، دفاع عن "المجتمع المفتوح ضد أعدائه" La société ouverte et ses ennemies، دفاع ضمني بقوة الحرف والكلمة والاعتقاد عن بغداد عاصمة المجتمع المفتوح في زمن مضى، بغداد/ دار السلام، قبل أن يخليها على عشها التعصب والتزمت الحنبلي[41]، ومحاولة لاسترجاع بغداد المفتوحة جوامعها وحلقاتها ومناظراتها أمام المؤمن والملحد على حد سواء، وأمام الكلابي والمعتزلي، والديصاني والمانوي، بغداد حيث حق السجال بين أرباب العقائد والملل مضمون، ولأصحاب النزعات النقدية محفوظ ومصون، دون تهديد ولا وعيد، بأن من يفارق ما اتفقت عليه الفرقة الغالبة في ساحة الاعتقاد، قيد شبر، فإنه يموت ميتة الجاهلية. بغداد التي كانت مساجدها مؤسسات كافلة لحرية الجدل عن الآراء وضامنة لمطامح الأطراف المتعددة في التعبير، حتى إن أحد المتأخرين، وهو ابن عقيل يقول متحسراً على أحد أخطر ملاحدة الإسلام، وهو ابن الراوندي: "وعجبي! كيف عاش؛ وقد صنف (الدامغ) يزعم أنه قد دمغ به القرآن، والزمرد يزري به على النبوات ثم لا يقتل؟ وكم قد قتل لص في غير نصاب ولا هتك حرز؟ وإنما سلم مدة وعاش".[42] والعودة إلى بغداد الأمس هنا، هي فتح لأبواب الاختلاف بعد أن تمّ إقفالها بأقفال التشدد والإقصاء والاستبداد الكلامي الذي عرفه الأشعري مع المعتزلة، وعايشه مع حنابلة عصره، وكذلك هي تفرشة

[41]- يقول ابن الجوزي في المنتظم ج 7 ص 287: في سنة ثمان وأربعمائة استتاب القادر بالله فقهاء الحنفية، فأظهروا الرجوع وتبرؤوا من الاعتزال، ثم نهاهم عن الكلام والتدريس والمناظرة ... وأخذ خطوطهم بذلك، وأنهم متى خالفوه حلّ بهم من النكال والعقوبة ما يتعظ به أمثالهم ... وأمر بلعنهم على منابر المسلمين وإبعاد كل طائفة من أهل البدع وطردهم عن ديارهم وصار ذلك سنة في الإسلام.

[42]- نقله عنه تلميذه ابن الجوزي في المنتظم 100/6

أولية لعوائد الحوار وآداب المناظرة واحترام الآخر المكون لحقيقة تعددية تفهم الدين الواحد، باعتبار الأخير غير خالٍ من احتمالية وجود فهوم مختلفة له.

وإذا كان هذا الاختلاف خطراً على الأمة، ومفرقاً لها بالنسبة للبعض، فهو عند أبي الحسن من خلال جمعه لكل المختلفين في خندق الإسلام لا يعتبر أبداً تشرذماً وانقساماً منبئاً بخورها، بل هو دليل حيويتها وتيقظها وتواصل وحوارية فرقها، مادام الخلاف بينهم ضرورياً؛ فاختلافهم غير مخرج لأي منهم من دائرة الإسلام، إذ إن أول اختلاف في الأمة حدث بعد وفاة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مباشرة في أشياء كثيرة "ضلل بعضهم بعضاً، وبرئ بعضهم من بعض، فصاروا فرقاً متباينين وأحزاباً مشتتين، إلا أنّ الإسلام يجمعهم ويشتمل عليهم".[43] ورغم أنّ الممعن في النظر في المقالات لا يشك في كون الاختلاف قد شاب كل مجالات الحياة في معيش تلك الفرق والمذاهب؛ فالخلاف امتدّ حصوله من أشياء ربما لا تخطر على بال أحد، كالحكم على من ذبح بسكين مغتصبة، حتى المسائل التي تخطر ببال أي واحد، وهي أم المسائل ومنبع المشاكل الإمامة العظمى، فإنّ الحقيقة واحدة والمصيب هو الجميع، بحسب الأشعري، مادام الإسلام ضاماً للكل. وأنّ الجنة التي أكد البعض أنها لا تتسع إلا لفرقة واحدة، وأنّ هذه الفرقة الناجية، إما تكون هي أو لا تكون، في تناقض منطقي مع أية تعددية، فإنّ أبا الحسن الأشعري يوسّع من دائرتها فلا يقوم بغلق أبوابها في وجه أحد مادامت كل الفرق عنده من المصلين المسلمين، وكأنه يريد من ضمّ الكل لأرض الإسلام قول القائل من أهل العرفان "إنّ الخلاف حق حيث كان"، أو قول القائل بأن "المعرفة التي لا تتنوع لا يعول عليها"، منتهياً به اعتباره للاختلاف إلى أنه، رغم خبط المتكلمين الطويل في مقالهم المتضارب، ورأيهم المنقسم المتباعد، فإنّ طريقهم واحدة، وهدفهم أوحد، وهو ما لخّصه أبو الحسن الششتري في بيت من إحدى قصائده:

ألف قبل لامين وهاء قرة العين

إجمالاً:

إننا اليوم باستعادة المشروع التنظيري للأشعري حول الاختلاف المستبطن في كتابه "مقالات الإسلاميين"، يمكننا الاعتراف بأننا قادرون على أن نعيد للإسلام وجهه الجميل، وأن نُنْقِذه من عبودية الكراهية والتطرف، ونكسبه المعركة ضد جيوب الغلو وميليشيات الإقصاء، بضمان مكان للمختلف في الواقع المعيش،

[43]- الأشعري، ج1، ص 34

إذ ننطلق في تعاملنا مع الآخر ضمن مبدأ أبي الحسن من كوني كي أكون ليس عليّ إلغاء الآخر الذي يختلف عني، وذلك ضمن إيمان عام بتعددية ربانية هي سبيل الفطناء المميزين الذين لا يغلطون ولا يغالطون في حق مخالفيهم، ولا يستحلون الكذب في تحوير وتزوير مقالاتهم، تعددية ربانية تضمن للإسلام غناه وجماله اللذين أكسبه إياهما تعدد أقوال أهله عنه وفيه، في فترة من حياة هذا الدين. هذه الأقوال التي أسست ذات يوم لحيوية الإسلام ومرونته الأزلية والمستمرة التي يسعى بعضهم اليوم إلى نقضها والنكوص عنها بمعانقة مشاريع الجهل بالإسلام، وتجاهل أنّ حقيقته في تعدد تصورات ناسه عنه، ما دامت مسؤولية علم الكلام ليست السبب في خراب الحضارة الإسلامية، بل "إنّ مسؤوليتهم الواضحة تكاد تعد نقيض ذلك، هي مسؤولية في بناء الحضارة الإسلامية".[44]

[44]- محمد الوزاد، في الرشدية العربية المعاصرة: مقاربات "الكشف عن مناهج الأدلة" نموذجاً، **مجلة مقدمات**، عدد 15 شتاء 1998، ص 32

المصادر والمراجع:

- الأشعري، أبو الحسن، **مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين**، تحقيق محيي الدين عبد المجيد، المكتبة العصرية، بيروت، 1990، ج1، ج2
- الغزالي، أبوحامد، **فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة**، تحقيق محمد دبيجو، طبعة الأولى، 1993
- ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، دار صادر، بيروت، الطبعة الاولى، ج6 وج7
- الوزاد، محمد، في الرشدية العربية المعاصرة: مقاربات "الكشف عن مناهج الأدلة" نموذجاً، مجلة مقدمات، عدد 15 شتاء 1998، ص 32
- بوهلال، محمد، **إسلام المتكلمين**، رابطة العقلانيين العرب / دار الطليعة، بيروت، ط1، 2006
- ابن عساكر، **تبيين كذب المفتري فيما نسب للإمام أبي الحسن الأشعري**، دمشق، 1347
- الفارابي، **إحصاء العلوم**، بيروت، مركز الانماء القومي، 1991
- حسين محمود، فوقية، **تقديم الإبانة عن أصول الديانة**، لأبي الحسن الأشعري، دار الكتاب، ج1
- بدوي، عبد الرحمن، **مذاهب الإسلاميين**، دار العلم للملايين، بيروت، 1997
- Makdisi, George. *Ibn 'aqil: Religion and Culture in Classical Islam*. Edinburgh: Edinburgh University Press, 1997

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
مؤسسة دراسات وأبحاث

قسم دراسات الموروث الديني

زنقة غابس – الرباط المدينة
الرباط، المغرب
ص.ب: 10569
الهاتف: 00212 5 37 73 04 50
الفاكس: 00212 5 37 73 04 08
info@mominoun.com
www.mominoun.com

MominounWithoutBorders

@Mominoun_sm

mominoun